كان صوت احتكاك عجلات السيارة « نصر » الصغيرة بأسفلت الطريق بعد أن ضغط قائدها فجأة على « الفرامل » كافيا لأن يهز المقعد من تحت فاطمة ويجعلها تلقى بكتاب كان بيدها جانبا وتمد رأسها لتوجه حديثها الى زوجها الذى يجلس خلف عجلة القيادة وقد تملكها رعب حقيقى !

قصة : محمد أحمد الشرقاوى

الحقيقة الأخرى

ـ ماذا حدث يا مصطفى ... أنت تخيفنى بقيادتك هذه ؟!

ـ آسف يا عزيزتى .. لم أقصد ازعاجك .. كنت سأضل الطريق .

وساد الصمت بينهما برهة كانت السيارة خلالها تثير خلفها عاصفة كبيرة من الغبار بعد أن تركت الطريق المعبد وسارت بضع مئات من الأمتار على طريق زراعى ضيق يكاد من فرط ضيقه أن يجعل من مرور السيارة أمرا صعبا فى أماكن كثيرة وفجأة دفعت فاطمة برأسها مرة أخرى الى الامام من مقعدها الخلفى وقد فغرت فاها واعترى وجهها الابيض المستدير مزيجا من الانفعال والدهشة وقالت وهى تثبت منظارها على عينيها :

ـ هل جننت يا مصطفى ... ليس هذا هو طريقنا المعتاد ؟

ـ أعلم ذلك يا عزيزتى .

وسكت مصطفى ثم اشعل لفافة وجعل ينفث دخانها فى هدوء بينما ما زالت فاطمة واقفة ووجهها ينطق بحيرة شديدة وهى تحاول التحكم فى أعصابها

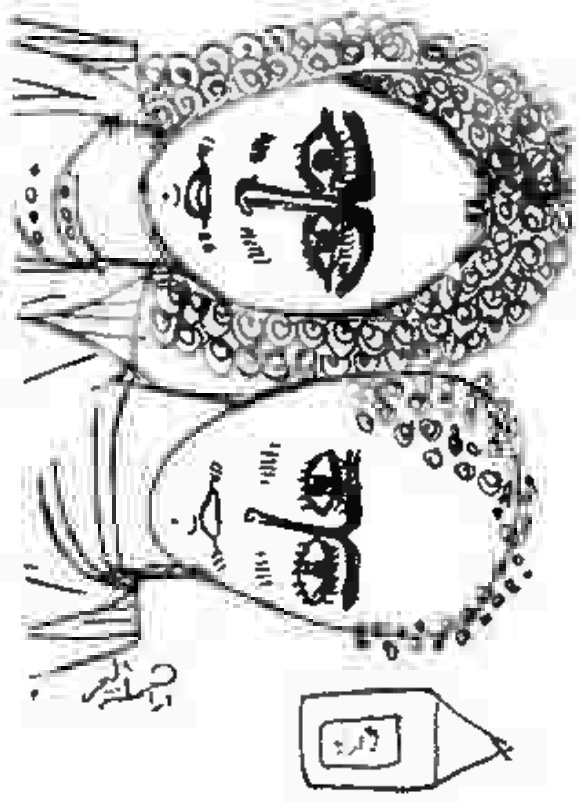

التى كاد أن يفلت زمامها منهـا بعد أن صايقها مصطفى بطريقة حديثه معهـا وكلماته المقتضبه التى تركتهـــا وهى اشد حيرة من ذى قبل :

ـ هل أستطيع يا عزيزى أن أعرف الى أين نحن ذاهبين ؟

وقال أحمد وعيناه مثبتتان على عداد السرعة :

ـ أجل يا فيفى ٠٠ هذا من حقك ٠٠ نحن يا عزيزتى ذاهبون لزيارة صديق ٠

ـ ولماذا لم تصحبنى معك فى زياراتك السابقة حتى أتعرف عليه ٠

وابتسم مصطفى وزادت ابتسـامته واتسـعت لتصبح ضـحكة كبيرة تردد صداها بين جنبات العربة الصغيرة بينما تملكت الدهشة فاطمة من جديد ثم قال مصطفى وآثار الضحك ما زالت عالقة فى وجهه الصغير الأسمر :

ـ الأمر فى منتهى البساطة ياعزيزتى ٠٠ اننى أزور صديقى هذا كل عام فى هذا اليوم بالذات ٠٠ وبالطبع تذكرين اننا تزوجنا منذ اربعـة شهور فقط ٠٠ اليس كذلك يا فاطمة ٠

لم تتكلم **فاطمة** بعد ذلك بل جلست فى مقعدها الخلفى وامسكت بكتابها مرة اخرى وكلمات **مصطفى** مازالت تدور فى رأسها ٠٠٠ زيارة صديق٠٠ نفس اليوم من كل عام ٠٠ أشياء غير مفهومة وهكذا مردها **مصطفى** منذ تزوجها ٠٠٠ كلماته دائما غامضة مبهمة ٠٠ انه يجعلها تحس دائما أنها أقل منـه ذكاء وثقافة ويتنهز كل فرصة للسخرية منها ومن تصرفاتها حتى تدمع عيناه من الضحك ٠٠٠ هذا لاحساس الضخم يتعوقه عليها يضايقها ويحول حياتها الى جحيم٠٠ قضت سنوات دراستها حتى تخرجت طبيبـة وهى لا تقرأ الا كتب الطب ولا تناقش الا فى علوم الطب ٠٠٠ كانت كلمـات الثقافة والادب والسـياسة تبدو شـبه غامضة بالنسبة لها ولم تفكر فيهـا فى يوم من الأيام ولم تحـاول فى أى لحظة أن تجهد ذهنها فى أشياء كهذه بل كانت تعدها مضيعة للوقت وعبثـا لا طائل منه حتى قابلت مصـطفى ويومهـا أدركت الهوة العميقة التى تفصل بينهما واحست كأن الأرض تنهار من تحت قدميها وبرغبة عميقة فى البكاء ٠٠ **مصطفى** ٠٠ كم يقسو عليها فى بعض الأحيان ولكنها تحبه لأنه طيب ووديع وذكى لا يستقر فى مكان ولا يعجبه اى شىء ٠٠ الملل والشقاق عدواه اللدودان ٠٠ يبدو دائما كأنه يبحث عن شىء لاوجود له وهو فى بحثه لايكل ولا يتعب ٠ وهى لا تعلم حتى الآن لمـاذا تسحر منها ويحتقرها وفى نفس الوقت يشعرها أنه يعبـدها وطالما بكى كطفل على صدرها ٠٠ كانت عيناها لاتفارقان الكتاب الممدود أمامها وصوت «**كلاكس**» السيارة يدوى فى أذنيها بين لحظة وأخرى ليغرق مجموعات الاطفال التى تتصايح وتملأ الطريق الضيق الذى يمتد كثعبان طويل يتلوى ثم قامت فاطمة لتغلق نافذة السيارة الزجاجية بعد أن بدأت حبات التراب الصغيرة تتسرب الى ثيابها ثم خرج صوتها من جديد وهى تغالب رهبة من السؤال :

ـ هـــل بقى الكثير حتى نصـــل يامصطفى ؟

ـ لا يا عزيزتى ٠٠ ربع سـاعة على الاكثر ٠

وعادت الى كتابهـا مرة أخرى بينما امتـدت حقـول القطن الشاسعة أمام مصطفى فبدت أمام عينيه كأروع مشهد يراه انسان ٠٠ أكتوبر ٠٠ شهد الرخاء للفلاح المصرى ٠٠٠ ينتظره طول العـام

يصبر نافد فى أيامه السعيدة يجنى القطن ويعم الخير وتملأ النقود الجيوب الخاوية وعلى طول الطريق كان يصل الى اسماعه صوت الفلاحين وحناجرهم ترتفع بأهازيج طالما ابتهج لسماعها وارتعش قلبه الصغير لترديدها ... وعلت وجهه ابتسامة باهته عندما رأى فى المرآة المثبتة امامه فاطمة وكتابها ما زال راقدا بين يديها ... كنت أنتظر هذه الأيام من كل عام وأعد لها بالدقيقة ... هؤلاء الذين تمتد أيديهم الآن لتنزع من شجرات القطن ثمارها الثمينة أكاد أحسدهم ... كم أود أن أترك سيارتى هنا فى هذا المكان وأنزع ثيابى البغيضة هذه وارتدى جلبابا واسعا وأربط وسطى بحبل ثم أملأ صدرى حتى ينتفخ باللورات البيضاء المتفتحة ثم أجرى وسط الحقول الممتدة الواسعة حتى ألهث ثم أجلس لأستريح وأقوم وأتسلق أطول شجرة نخيل هنا وأجنى ثمارها بنفسى وأقضمه هناك فى الهواء بعيدا عن الارض وأستنشق عبيرا صافيا افتقدته منذ مدة ... أكاد أختنق هنا فى هذه السيارة الصغيرة وصوت موتورها اللعين لا يكف عن الأزيز لحظة واحدة ... أحس كأن رباط عنقى يضيق حول رقبتى شيئا فشيئا حتى يكاد يحرس أنفاسى اللاهثة عشرة أعوام كاملة وأنا حبيس ملابسى هذه ... لقد أصبحت رجلا وستلتحق بالمدرسة الثانوية بعد اسبوع ولا يليق بالرجال أن يجروا وسط الحقول أو يتسلقوا أشجار النخيل ... هكذا قال والدى ويومها بكيت بأعلى صوتى وضربت الحائط برأسى وامتنعت عن الطعام يومين ثم جاءت نفس الكلمات ... لن تذهب الى هناك بعد اليوم ... هكذا قلت وهكذا سيكون ، دواب الفلاحين تملأ الطريق أمام السيارة وصوت « الكلاكس » يفزعها ويجعل أصحابها يصبون اللعنات على الافندية أصحاب السيارات الذى يتسببون فى ازعاجهم ومزاحمة الطريق على حيواناتهم، وبدأت السيارة تقترب من بيوت القرية الوطنية السوداء ... لايعرف مصطفى لماذا ينتابه هذا الشعور عندما تبدو له أى قرية من بعيد ... تكاد كل خلية فى جسده تنبض فرحة مبتهجة ويحس كأن شيئا ثمينا قد عاد اليه بعد طول غياب وأن حواسه كلها قد استيقظت بغتة بعد أن وجدت مكانها الطبيعى التى تستطيع أن تمارس فيه نشاطها وحيويتها وبعد دقائق كان مصطفى يشق القرية بعربته ... قرى مصر تتشابه كلها ... نفس أشجار النخيل والمنازل الداكنة وحيات العرق التى تتعهد على حياة أولئك الناس الطيبين الذين يزرعون لنا الارض الطيبة وبلغ القرية من الناحية الأخرى ثم استدار وسار بضعة مئات من الأمتار ليتوقف بعدها وينزل من السيارة ثم أخذ طريقه على شريط ضيق وسط الحقول ثم توقف والتفت خلفه ليجد فاطمة تتعثر وهى تحاول اللحاق به ثم قالت لاهثة وهى تنفض حذاءها من آثار الطين الذى علق به :

ـ أين يسكن صديقك هذا يا احمد

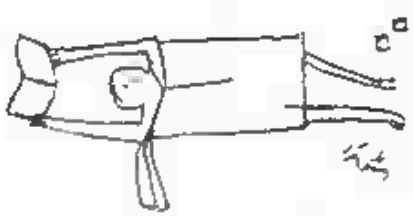

.. لقد عبرنا القرية من شرقها الى غربها ثم جئت الى هنا .. هل يقيم صديقك في هذه الحقول .

وقال أحمد وهو ينزع لفافته من بين شفتيه ومسحة من الحزن تغطي وجهه :

ـ أجل يا عزيزتي .. هناك .

ثم أشار بيده ولم تر هي شيئا بل سارت الى جانبه ولم تحاول الكلام فهي تعرف من تجاربها الماضية معه ان الحديث في مثل هذه الأوقات لن يجدي شيئا بل من الأفضل أن تظل هكذا صامتة وبعد وقت ليس بالقصير وجدت فاطمة نفسها أمام شيء أشبه بمنزل صغير له سور مرتفع يرقد وسط غابة صغيرة من أشجار الكافور ودب في قلبها شعور مبهم بالخوف ومصطفى يتقدم ليدق على الباب دقات شديدة متوالية ففتح الباب سريعا عن كهل له لحية بيضاء طويلة تتدلى على صدره وقال وهو يكاد يبكي من وجهه :

ـ مرحبا يا دكتور مصطفى .. لم تخلف ميعادك أبدا .. ومن الذي معك يا دكتور ؟ .

ـ زوجتي يا عم ابراهيم

ـ مبروك يا ولدي .. ألف مبروك .. الزواج نصف الدين .

وسارت فاطمة خلف مصطفى وقد تقدمهم الكهل وقادهم الى باب آخر وعقدت الدهشة لسان فاطمة فلم تستطع الكلام بعد أن كادت ، فقد انفتح الباب عن مقبرة رقدت الى جوارها باقة كبيرة من الزهور وقال العجوز وهو يحاول بكل قوته أن يرفع الباقة الضخمة ليقدمها لأحمد : ـ

وأسرع مصطفى ليحمل عنه الحمل الثقيل ثم تقدم ليضعه فوق المقبرة الصغيرة والدموع تملأ عينيه ثم مال برأسه على حافة المقبرة وقد أصابته موجة عميقة من البكاء وتملك الاضطراب فاطمة ولم تدر ماذا تفعل فقد سيطر عليها في تلك اللحظات شعور عميق بالحزن والفزع ... الكهل يبكي هو الآخر ودموعه تتساقط على خديه الصامرين ثم تتسلل ببطء بين شعرات لحيته التي تبدو بيضاء كالثلج لتنزل على صدره ساخنة غزيرة وبعد لحظات وجدت فاطمة نفسها تبكي هي الأخرى وقد غطت وجهها براحتيها ولم تدر كم من الوقت مر وثلاثتهم على هذا الحال ثم نهض مصطفى من جلسته وهو يجفف دموعه ثم وضع يده على كتف زوجته وبعد لحظات قاموا خارج المقبرة وعندما ادار مصطفى موتور السيارة ليبدأ في العودة كانت آثار الدموع ما زالت عالقة في وجهه وعينيه ثم قال وهو يحاول السيطرة على كلماته :

ـ هذه هي مقبرة صديقي فوزي يا فاطمة .. مات في حادث منذ خمس سنوات .. كان أمله أن يصبح طبيبا .. كما أصدقاء العمر .

ثم جذب نفسا عميقا من لفافته وعيناه ما زالتا تراقبان الطريق وقال .. ماتت أخته الكبرى عندما أخطأ طبيب في تشخيص مرضها وعلاجها ولهذا صمم على أن يكون طبيبا .. كان مصطفى يتكلم كأنه يحب أن يتكلم .. لم يكن ينتظر من فاطمة جوابا .. كان يحس أن شيئا ما يثقل صدره ويكاد يحطمه ولهذا أحس أن يرغب في الكلام .. أن يقول أي شيء .. لا يهم أن ينصت اليه أحد .. بل من الأفضل أن يحدث نفسه دون أن يرفع صوته أو تتحرك شفتيه .. شيد له أبوه المقبرة في نفس المكان الذي كان يقضي فيه عطلته الصيفية .. وحيدا ..

بعيدا عن الصوضاء ·· هناك تحت غابة الكافور الصغيرة ·· فوزى كم كنت أحبه ·· كانت عيناه تشعان بريقا غريبا كلما ثار وما أسرع ثورته وهياجه ·· كان متطرفا فى آرائه أيما تطرف وما أكثر ما اختلفنا وتخاصمنا ثم نعود كأروع ما يكون الأصدقاء ·· كنت أتحمل ثورته وتطرفه عن طيب خاطر وأتنازل عن حقى ثم أقنعه فى هدوء فيستكين الى جانبى كقط هادىء وديع ويكاد يبكى وهو يعتذر الى عن تهوره وتسرعه ثم كان يوم ثار فيه وغضب مثلما لم يثر من قبل ·· كنا فى الأسبوع الأول من دراستنا فى السنة الأولى بالكلية ، وتطاحن مع فاطمة على مقعد بالمدرج وكاد يومها أن يشتبك معها ثم جاء لى بعدها يقول انه احبها وانه لا بد أن يتزوجها وبات لا يتحدث الا وقد ذكر اسمها وانه لا يستطيع العيش بدونها وقال انه يحس انها تبادله نفس الشعور لأنها تنظر اليه نظرات خاصة يفهمها هو ليس لها معنى سوى أنها تحبه هى الأخرى وأرسل الى والده خطابا بذلك يطلب فيه موافقته على الزواج من فاطمة وبعد أسبوع حملته عربة الأسعاف الى «قصر العينى» بعد أن صدمته سيارة ملعونة وفى نفس اللحظة التى وصل فيها بات الأمل فى نجاته قليلا فقد أصيب اصابات جسيمة وفقد قدرا كبيرا من الدماء وفى الصباح المبكر لفظ أنفاسه الأخيرة وفى المدرج الكبير كتب أحد الزملاء على السبورة نعيا له ووضعوا صورته حتى يتعرف عليه من لا يعرفه ويومها وبعد انتهاء المحاضرة مر الجميع أمام الصورة ووقفوا والدموع تكاد تطفر من عيونهم الا فاطمة وصديقة لها فقد ألقوا نظرة خاطفة على الصورة كأن الأمر لا يهمهم تماما وخطتهما تملكنى شعور قوى بالحزن والغضب ·· كدت أفقد صوابى وأنهال عليها بيدى حتى أفقدها الوعى ·· كانت تتحدث مع صديقتها عن آخر الأفلام والأزياء وهم يغادرون المدرج ·· مات المسكين وهو يعتقد انها تبادله عاطفته والآن لم تكلف نفسها مشقة النظر الى صورته ولو للحظة واحدة وكادت عيناى تخرجان من محاجرهما وهى تبحث عن فاطمة فى الحارة الكبيرة التى سارت من المستشفى حتى المسجد حيث صليا على روحه الطاهرة ·· أصبحت أكرهها ، بل أكره الأرض التى تفرش فيها أقدامها اللعينة وانقطعت عن الكلية قرابة شهر حتى لا أراها حتى لا تتجسد المأساة أمامى من جديد ومرت سنوات ثلاث

كنت لاأستطيع خلالها مقاومة التفكير في فاطمة طول الوقت .. ثم وجدت كراهيتي لها وحقدي عليها يقلان شيئا فشيئا لقد تحولت الكراهية الى حب عامر عميق .. ان الحب والكراهية كلاهما اهتمام شديد بشخص معين له علاقة وثيقة بنا .. كنت أمقتها في البداية بشدة .. هل لأنها لم تبكي أو تحزن أو تحاول الانتحار عندما مات صديقي فوزي وأبصرت صورته معلقة في المدرج؟ هذا هو رأيي وهذه هي الحقيقة التي أبصرها ولكن ماذا كان رأيها هي ؟ ان الحقيقة مسألة نسبية .. لكل منا حقيقته التي يعيش فيها ويحصر نفسه داخلها .. من الممكن جدا أنها لم تكن تبادله أية عاطفة وأنه أوهم نفسه أنها تحبه بينما هي لا تدري به تماما وهكذا نقع دائما في سلسلة من المتناقضات والأعمال التي كان من الممكن ألا تحدث لو كانت نظرة الشخص منا عميقة نافذة ليرى بها الحقيقة كاملة غير منقوصة .. وكنت أشعر في أحيان كثيرة أنها مظلومة وبريئة وأن حقدي وكراهيتي لها لم يكن لها أي مبرر وتزوجنا بعد التخرج مباشرة ومرت شهور أربعة حتى الآن منذ تزوجنا أشعر أحيانا برغبة ملحة في ايذائها وأتعمد مضايقتها وأثور بعنف على أتفه غلطة ترتكبها وعندئذ تبكي هي طويلا وتدفن رأسها بين راحتيها ولا تتكلم وأحس في نفس الوقت أنها رائعة وديعة لا تستحق مني كل ذلك وأكاد أبكي عند قدميها وأنا أصالحها أزور صديقي فوزي في نفس اليوم من كل عام .. اليوم الذي دفن فيه ... وهذه المرة شعرت كأنه يخرج من مقبرته يصرخ ويبكي ويمزق وجهه بمدية ثم يحاول الاقتراب مني وقد غابت الابتسامة عن وجهه ومديته ما زالت راقدة بين يديه كأنه رأى فاطمة وهي لا تلتفت الى صورته المعلقة في المدرج وكأنه شاهدها وهي لا تشترك في حفلته بل وتذهب الى حفلة السينما الصباحية وكأنه يراني وأنا أسرق فاطمة وأتزوجها .. أشعر الآن بتمزق هائل في جسدي وعقلي وعيناي تتنقلان بين عداد السرعة والطريق والمرآة التي أرى فيها فاطمة وكادت عملية القيادة أن تفلت من يدي وتصطدم بعربة اتوبيس تقوده سائقها بعدما بكلمات جعلت جسدي كله يهتز بالضحك ثم وجدت نفسي أقول لفاطمة وسعادة غامرة تسيطر على جسدي .

ـ كيف تبدين الآن يا زوجتي العزيزة .. لا عليك .. سنصل بعد نصف ساعة الى بيت نجمر .

ورأيتها في المرآة وقد ارتسمت دهشة كبيرة على وجهها وظلت صامتة بعض الوقت كأنها لا تصدق الكلمات التي ترددت على مسامعها منذ لحظة .. ثم ابتسمت وقذفت بكتابها ... كانت ابتسامة عذبة صافية لم أرها من قبل على شفتيها ثم انتصبت من مكانها وطوقت عنقي بذراعيها وقبلتني وقالت وشعرات رأسي الخشنة تنكسر تحت وقع أصابعها الطويلة النحيلة :ـ

ـ لا يهمك يا زوجي العزيز .. نصف ساعة .. ساعة .. المهم أن نصل معا

وأكتم الضحك بين لحظة وأخرى كلما تذكرت كلمات سائق الأتوبيس الغاية والشرر الذي كان يتطاير من عينيه بعد أن كدت أصطدم به في الطريق .

« د . محمد أحمد الشرقاوي »